سيدة بحجم وطن

فاديا سمارة [1]

هيفاء البشير سيدة رائدة ومعطاءة استطاعت أن تغيِّر ملامح العمل التطوعي الاجتماعي في الأردن، وأن توجِّه الجهود نحو دعم فئات تستحق المساندة من كبار السن والمرضى، وبالذات المرضى النفسيين، إذ تمكَّنت من بناء مؤسسات عريقة فاعلة وكفؤة لدعم تلك الفئات، وعملت عبر سنواتٍ طوال بكل جدٍّ وتفانٍ للحفاظ على تلك المؤسسات وإدارتها وضمان ديمومتها، لتُسجِّل بذلك إنجازاتٍ تشكِّل علامةً فارقة في العمل المجتمعي الهادف لم تقم به أيُّ مؤسسة مجتمعٍ مدنيٍّ من قبل في الأردن.

لقد عرفتُ السيدة هيفاء عن قرب من خلال علاقات أسرية تربطنا، حيث كنت أُكنُّ لها الإعجاب بما سطَّرته من نجاح وإنجازات مشهود لها في كافة أرجاء الوطن..

وفي العام ٢٠٠٩، وفي نطاق عملي كمستشارة ضمن مشروع الشفافية الدوائية، وهو مشروعٌ صحيٌّ محلي لتعزيز الشفافية والمساءلة في القطاع الصحي بمشاركة سبع دول وبدعم هيئات دولية.. طلبتُ منها الانضمام للمشروع كممثلة لمؤسسات مهمّة في المجتمع المدني الصحي، وقد أضافت مشاركتها في المشروع أثرًا مميزًا لما تتمتع به من خبرة ورؤية ثاقبة وجدية في العمل.. وبعد انتهاء المشروع قررت كوكبة من المختصين والخبراء ممن عملوا في المشروع إكمال ما تمَّ البدء به من جهود دعم المرضى، من خلال المجتمع المدني والمضي بتأسيس هيئة ومظلة أُطلق عليها لاحقا «الائتلاف الصحي لحماية المريض». وتوجَّهت الأنظار إلى الأستاذة هيفاء لتقود الفريق المختصَّ لتأسيس

(1) ناشطة في المجال الصحي.

الائتلاف بهدف مأسسة عمل الجمعيات المختصة بالصحة وجمعيات المرضى، وجمعها تحت مظلّة الائتلاف، لتأخذ دورها الفاعل والممنهج في الدفاع عن حقوق المرضى والعمل لإرساء سياسات صحية متمركزة حول المرضى والطبقات الأقل حظًا.

وقد حظيتُ بالعمل عن قرب مع الأستاذة هيفاء، بحكم عملي كأمينٍ عام للائتلاف الذي تكوّن من عشرين جمعية تُعنى بالشأن الصحيِّ ومجموعة من الخبراء بصفتهم الشخصية..

لقد تميزت السيدة هيفاء بالحزم والسياسة والدبلوماسية، وكان لقيادتها للائتلاف ودعمها لنا جميعًا كمؤسسين وخبراء أكبر الأثر فيما أحدثه الائتلاف من أثر في مجال الدفاع عن المرضى، وتوصيل احتياجاتهم ومطالبهم لصنَّاع القرار وتحقيق الإنجازات..

فأطلقنا الميثاق الوطني لحقوق المريض، لمأسسة حقوق المرضى وتغيير وتوجيه السياسات الصحية بحيث تكون متمركزة حول المريض، وتم الإجماع على الميثاق من كلّ المعنيين، كما تم إطلاق البرامج التدريبية للميثاق لمقدمي الخدمة الصحية ومتلقيها، وأقمنا الكثير من ورشات العمل للتوعية الصحية للمرضى بكل ما تحويه من جوانب، واستطعنا أيضًا أن نعدِّل قانون المجلس الصحي العالي ليكون المرضى ممثلين في المجلس، فعادت السيدة هيفاء لتتبوأ مكانها في القطاع الصحي ضمن مقعد لتمثيل المريض في المجلس الصحي العالي، وهو المقعد ذاته الذي اختيرت لتشغله في الثمانينيات من القرن الماضي إبان تأسيس المجلس بصفتها ناشطة اجتماعية.. كما قمنا بإدراج أدوية مهمّة للمرضى على لائحة التأمين الصحي وعملنا الكثير لدعم المرضى وتلبية احتياجاتهم والعمل على ضمان توفّر الأدوية ذات الجودة والمأمونية لهم، مستمدين من هذه السيدة العظيمة القوة وحُسن التوجيه، وكانت لها رؤى منذ البداية بدور هذا الائتلاف الذي كبر دوره وعظم أداؤه تمامًا كما أرادت له أن يكون.. وكان لدعمها لكلٍّ منا الأثر البالغ في كل ما استطعنا تحقيقه عبر السنوات الثمان المنصرمة.

وتتميز الأستاذة هيفاء بذكاء وحكمة لافتين، وقدرة على قراءة الموقف والتحرك السريع للحصول على أفضل النتائج واغتنام الفرص، وهذا ما كان يحدث عند لقائنا مسؤولين أو أصحاب قرار، فوجودها معنا في لقاءات المسؤولين كان دائمًا سبيلًا لتلبية طلباتنا بسرعة، وتمهيد الطريق لتحقيق هدفنا.

كما إنها تمتلك قدرة كبيرة لمواجهة التحديات وفضِّ الخلافات، فبحكمتها ورباطة جأشها ورؤيتها الثاقبة تمكَّن الائتلاف من تذليل الكثير من الصعاب وتحويلها إلى جسورٍ وفرص.

وتجمع السيدة هيفاء بين صفات القيادة والحزم في الإدارة مع اللين والديمقراطية والاحترام الشديد واللافت لرأي الآخرين، كما أنها مستمعة جيدة وداعمة للأفكار المتميزة، أما تواضعها فهو لافتٌ للنظر أيضًا، ذلك أنها تعامل من هم أصغر منها سنًّا وأقلّ خبرة ومعرفة باحترام شديد، وتُسخِّر كل ما تستطيع لدعمهم وتسهيل عملهم.

وهي تدير عملها بمهنيةٍ عالية، وتستطيع الجمع بين الحزم و«الحنيّة» بطريقة مثيرة للانتباه، فهي تفكِّر بكل صغيرة وكبيرة في ما يخص الموظفين الذين يعملون معها في مؤسساتها.

أما وقد كنتُ ممن اغتنوا بالقرب من هذه السيدة العظيمة، وكان لي شرف ملازمتها ورفقتها عبر السنين العشر الماضية، فصدقًا أقول إنني أَعُدّ نفسي الأكثر حظًا وحظوةً بهذه الرفقة على الصعيدين المهني والشخصي على حدٍّ سواء.. فقد تعلَّمتُ منها الكثير، فهي ملهمةٌ في صمتها وملهمة في حديثها، وقد باتت صديقتي الصدوقة، صديقة الروح والفكر التي تتمتَّع بعصريةٍ وديناميكية الشباب وحكمة خبرة الكبار العظماء.

وقد لازمتُها فأصبتُ بالعدوى، عدوى التطوّع والعمل الجاد، ويعود الفضل لها بأنني أحببتُ العمل الاجتماعي والتطوعي، إذ ساقتني الأقدار لأنهل من علم مَدْرسة في هذا السياق، بكلِّ ما تحويه كلمة مدرسة من أبعاد وحيثيات ومعانٍ..

فهي تعمل بصمتٍ وإخلاصٍ وتواضع، وفي عالَمها تتعاظم الإنجازات وتتضاءل الصعاب أمام قوة التحدي والثقة العالية والمصداقية.

وأكثر ما أثَّر بي أنها، وبآليّةٍ مذهلة، تتقدم الصفوف وتوجد في الصفوف الخلفية والوسطى في آن واحد، لا أعرف كيف!

وتُعدُّ السيدة هيفاء ظاهرةً قلَّما تتكرر، إذ تميَّزت بتعدد المهارات والإبداع والإتقان في كل مهارة؛ فهي الكاتبة والأديبة والمُنجزة في الحقل الاجتماعي والصحي وحقل شؤون المرأة والقائدة الملهمة لمن حولها، وقبل كلِّ ذلك هي المربية والأم الناجحة.

الأستاذة هيفاء سنبلةُ الخير ونبع العطاء الذي لا يجفُّ، الأم الصابرة المرابطة، سيدة بحجم وطن.